الحوار سبيلنا إلى التعايش

د. عبدالعزيز بن عثمان التويجري *

الحوار هو نهج الحكماء للتراضي والتوافق والتسامح، وسبيل العقلاء إلى العيش في أمن وأمان ووئام وسلام. والحوار هو البديل للصراع وللصدام، وهو الذي يمتصّ مشاعر الكراهية والعداوة بين الأفراد والجماعات، ويقطع الطريق على نشوب الحروب ونشوء الأزمات التي تتهدّد استقرارها.

ولذلك فإن المبادرة الرائدة لخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود، حفظه الله، للحوار بين الحضارات والثقافات وأتباع الأديان؛ جاءت في الوقت المناسب لتعبّر عن إرادة واعية مسؤولة تتطلع إلى إقامة الأسس المتينة للاستقرار في العالم وإشاعة قيم العدل والسلام.

المبادرة الرائدة لخادم الحرمين الشريفين جاءت في الوقت المناسب.

الحوار والعقل

إن الحوار في تراثنا الثقافي والحضاري يكسب معنى يدلّ على قيم ومبادئ هي جزءٌ أساسٌ في الثقافة والحضارة الإسلاميتين؛ فمن حيث الدلالة اللغوية، نجد أن جذر (ح.و.ر) مثقلٌ بالمعاني التي تؤكد مفاهيم أصيلة في تراثنا الثقافي والحضاري، ففي لسان العرب، الحوار هو الرجوع، وهم يتحاورون، أي يتراجعون الكلام، والتحاور هو التجاوب والمجاوبة، والحَوْرُ هو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، والمحاورة مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، بل إنه ليدهشنا حقاً أن يكون من أسماء العقل في اللغة العربية، الأحْوَر.

واقترانُ الحوار بالعقل، على هذا النحو، يؤكد معنى سامياً في سياق تحديد مدلول اللفظ؛ ذلك أن الحوار العاقل، هو الذي يقوم على أساس راسخ، ويعتمد وسيلة سليمة، ويهدف إلى غاية نبيلة، وارتباط الحوار بمعنى الرجوع عن الشيء وإلى الشيء يثبّت في الضمير الإنساني فضيلة الاعتراف بالخطأ، ويركز على قيمة عظمى من قيم الحياة الإنسانية، وهي القبول بمبدأ المراجعة، بالمفهوم الحضاري الواسع الذي يتجاوز الرجوع عن الخطأ، إلى مراجعة الموقف برمته، إذا اقتضت لوازم الحقيقة وشروطها هذه المراجعة، واستدعى الأمر إعادة النظر في المسألة المطروحة للحوار على أي نحو من الأنحاء، وصولاً إلى جلاء الحق.

إن الحوار الراقي بين الحضارات والثقافات وأتباع الأديان مظهر حضاريٌّ إنساني يعكس تطور المجتمع ونضج فئاته الواعية، ولكي يكون حواراً مثمراً، فإنه لا بد أن يستند إلى أسس ثابتة، وضوابط مُحكمة، وأن يقوم على شروط أساس يمكن حصرها في أربعة، هي:

١- الاحترام المتبادل.

* المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - الأمين العام لاتحاد جامعات العالم الإسلامي.

٢- الإنصاف والعدل.
٣- نبذ التعصّب والكراهية.
٤- التفاهم حول الأهداف.

وفي رؤية العالم الإسلامي الحضارية التي عبّرت عنها مبادرة خادم الحرمين الشريفين، فإن الاحترام المتبادل بين الأطراف المتحاورة، هو المنطلق الأول الذي يجب أن يرتكز عليه الحوار، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٨). وهذا يفترض وجود قواسم مشتركة تكون إطاراً عاماً وأرضية صلبة للحوار، ولنا في القيم الدينية أولاً، ثم في المبادئ الإنسانية والقواعد القانونية، غِنَاءٌ لجميع الفرقاء المشاركين في الحوار، على أي مستوى كان، وهي جميعاً قيم ومبادئ تحكم علاقات البشر بعضهم مع بعض، وتضبط مسار حركاتهم وسكناتهم، وتضع القواعد الثابتة للتعامل فيما بينهم، وبذلك نضمن ألا يكون الحوار ساحة للّجاج العقيم، والتطاول على أقدار الناس، والمسّ بمكانتهم، وتبادل الإساءة فيما بينهم، ولئلا يفقد الحوار صبغته الحضارية.

وإذا كان الاحترام المتبادل منطلقاً أولاً للحوار، فإن الإنصاف والعدل هو المنطلق الثاني، ولنا في قوله تعالى في سورة المائدة قاعدة ثابتة، وهداية دائمة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة: ٨). فالعدل هو أساس الحوار الهادف الذي ينفع الناس ويمكث أثره في الأرض. ويقتضي العدل المساواة بين البشر في الكرامة، ويستدعي الاعتراف بالفضل لذويه، ويتطلب الإقرار بالحقيقة حتى إن لم تكن في مصلحة جميع الأطراف، ثم إن العدل هو روح الشريعة الإسلامية، وروح الحضارة الإسلامية التي اشترك في إغنائها المسلمون وغيرهم من أتباع الديانات السماوية الذين عاشوا في رحاب الدولة الإسلامية؛ كما أن العدل هو جوهر القانون الوضعي، وهو الأساس الراسخ الذي يقوم عليه القانون الدولي الذي يجب أن يسود المجتمعات البشرية كلها.

ولذلك فإن أهداف أي حوار ثقافي حضاري ينبغي أن تبدأ من الإنسان وتدور حول شؤونه وقضاياه، وتعود إليه؛ لئلا يفقد الحوار قيمته وأهميته ومضمونه الغني. وهذه الأهداف من الكثرة بحيث يتعذّر حصرها، ولكن يمكن إجمالها فيما اتفق المجتمع الدولي اليوم على عدّها أهدافاً إنسانية سامية.

وما دام الحوار بين الحضارات والثقافات وأتباع الأديان حركة فكرية إيجابية، وعملية ثقافية فاعلة، وشكلاً متطوراً من أشكال التعاون الإنساني، وما دام التحالف طبيعة مبتكرة للتعاون الدولي في إطار من التعايش الإنساني؛ فيمكن لنا اتخاذ ما ورد في (إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي) من أهداف، مثالاً لها، فقد نصّ هذا الإعلان على الأهداف التالية:

الحوار بين الحضارات والثقافات حركة فكرية إيجابية وعملية ثقافية فاعلة.

١- نشر المعارف وحفز المواهب وإغناء الثقافات.

٢- تنمية العلاقات السلمية والصداقة بين الشعوب والوصول إلى جعل كل منها أفضل فهماً لطرائق حياة الشعوب الأخرى.

٣- تمكين كل إنسان من اكتساب المعرفة والمشاركة في التقدم العلمي الذي يحرز في جميع أنحاء العالم والانتفاع بثماره، والإسهام من جانبه في إثراء الحياة الثقافية.

٤- تحسين ظروف الحياة الروحية والوجود المادي للإنسان في جميع أرجاء العالم.

وكما هو شأن التعاون الثقافي الدولي، فإن على الحوار بوجه عام، أن يكون من أهدافه أيضاً، إبراز الأفكار والقيم التي من شأنها توفر مناخ صداقة وسلام، واستبعاد جميع مظاهر العداء في المواقف وفي التعبير عن الآراء.

وهكذا يتبيّن لنا في ضوء هذه الحقائق، أن الحوار الجادّ بين الحضارات والثقافات وأتباع الأديان، لا بد أن يسير في اتجاهين اثنين رئيسَيْن:

أولهما: إزالة الأسباب والعوامل والمشكلات التي تعوق التعاون بين الأمم والشعوب من أجل ما فيه الخير والمنفعة والمصلحة لها جميعاً، وذلك من خلال معالجة القضايا المعقدة والمسائل الشائكة التي تتسبَّب في زعزعة استقرار المجتمعات الحديثة، وتؤدّي إلى اتساع الهوة بين الشمال والجنوب على المستويات كافة، على أن يتم ذلك كله في إطار القانون الدولي، بما يعني الاستثمار الجيّد للعلاقات الثنائية أو الإقليمية أو الدولية التي تجعل من دول العالم أسرة إنسانية تربط بينها مصالح مشتركة.

ثانيهما: تصحيح الصور النمطية التقليدية المتداولة في الساحة الدولية عن الأمم والشعوب، وعن الحضارات والثقافات، وعن الأديان السماوية، وذلك من منطلق رئيس، وهو أن الحوار يتم بين الأفراد والجماعات، وليس بين المعتقدات الدينية، لأن القصد الذي يتجه إليه الحوار هو تبادل المنافع والمصالح بين الناس، لا التأثير في العقائد التي يؤمنون بها، أو في الثقافات التي ينتمون إليها، على أساس من القواعد العقلية.

وفي المرحلة الحالية المطبوعة بطابع القلق والتوتر التي يجتازها العالم، فإن ثمة أربعة أهداف رئيسة ذات الأسبقية للحوار بين الثقافات والحضارات وأتباع الأديان، هي:

أولاً: الحيلولة دون تفاقم الأوضاع العالمية على المستويات كافة، من منطلق الحوار الثقافي والحضاري، بوصف أن جلّ الأزمات العالمية تكون أسبابها وخلفياتها ثقافية وحضارية.

ثانياً: معالجة السياسات التي تؤدي إلى التدهور في العلاقات بين الدول، وفي التباعد بين الأمم، وفي التنافر بين الثقافات والتصارع بين الحضارات.

ثالثاً: تعزيز التعاون الدولي في مجال محاربة الجريمة المنظمة، مثل: الاتجار في المخدرات، والجنس، وتبييض الأموال.

رابعاً: التصدي للإرهاب بكل أشكاله، والتطرف بكل صوره، والكراهية والعنصرية بجميع مظاهرهما، على أن يسبق ذلك كله، تحديد لمفهوم الإرهاب في نطاق القانون الدولي.

وتأسيساً على ذلك، فلا يجوز النظر إلى الحوار بين الحضارات والثقافات وأتباع الأديان بوصفه نشاطاً فكرياً ثقافياً أصم لتدارس منجزات الحضارات القديمة وإسهاماتها، وإنما هو استكشاف للتاريخ الحضاري لبناء آفاق تعاون متعددة المجالات في الحاضر والمستقبل حتى تسود العالم الحرية والعدل، إلا أن الاستشكاف يفرض جملة من التساؤلات المعقدة، مثل: ماهية القيم التي تجعل التفاعل الحضاري متكافئاً بين حضارة العلم والتكنولوجيا الغربية، والحضارات الأخرى التقليدية غير الغربية؟ وإلى أي مدى تعدُّ القيم المتضمنة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان جزءاً من حضارة عالمية؟ فمثل هذه التساؤلات تعكس إشكاليات ما بعد الحداثة التي تتميز بتعقد الظواهر، والقبول بالثغرات القائمة في أنماط التفاعلات بين الحضارات.

وتتعدّد مجالات الحوار الهادف الجادّ وتتنوّع، غير أن أهمها في المرحلة الحالية هي المجالات التالية:

أولاً: المجال الثقافي والحضاري، والحوار فيه يهدف إلى التعارف وتصحيح المفاهيم الخاطئة والصورة المشوهة، كما يهدف إلى التفاهم على الجوامع المشتركة بين الثقافات والحضارات، وإلى التلاقح الثقافي والحضاري الذي ينتج الإبداع والتجديد.

ثانياً: المجال الديني، والحوار فيه يهدف إلى تعزيز القيم الدينية، ونشر الفضائل ومكارم الأخلاق وتقوية الإيمان بالمبادئ القويمة التي جاءت بها الأديان السماوية، والتعاون على توعية الناس بأخطار الانحراف الفكري والسلوكي، والتطرّف والغلوّ والجريمة بكل أنواعها.

■ **الحوار يسهم في إزالة القلق والتوتر اللذين يسودان العالم المعاصر ويحولان دون تفاقم الأوضاع غير السلمية.**

ثالثاً: المجال الاقتصادي، والحوار فيه يهدف إلى تطوير العلاقات التجارية بين الدول في إطار القوانين الدولية، وبما يحقق المصالح المشتركة فيما بينها، بعيداً عن أي نوع من الاستغلال، ودعم جهود التنمية الشاملة والمتكاملة خصوصاً في الدول النامية، ومنع الاحتكار والاستغلال واستنزاف الموارد الطبيعية والمواد الأولية للدول الفقيرة، وإقامة أسس جديدة للتجارة الدولية لضمان العدل والإنصاف.

رابعاً: المجال السياسي، والحوار فيه ينبغي أن يهدف إلى احترام قواعد القانون الدولي والالتزام بالشرعية الدولية، وإقامة العلاقات الثنائية بين الدول على أساس الالتزام والاحترام المتبادلين، والعمل من أجل استتباب الأمن والسلام في ربوع العالم، ومحاربة الإرهاب، ودعم حق الشعوب في تقرير مصيرها وفي الدفاع عن سيادتها وتحرير أراضيها، وفي اختيار أنظمتها وقوانينها التي تنسجم مع خصوصياتها الثقافية، وتحفظ لها سيادتها على قرارها.

إنّ الحوار بين الحضارات والثقافات وأتباع الأديان، يفتح آفاقاً واسعة للتعاون الإنساني، ويجدد العلاقات الدولية بضخ دم جديد في شرايينها، ويشيع قيم المواطنة العالمية التي تتجلى في تعميق الإحساس العام بالانتماء إلى أسرة إنسانية واحدة، ذات أصل واحد، وتعيش في كوكب واحد، ويواجهها مصيرٌ واحدٌ.

والحوار بين الحضارات والثقافات وأتباع الأديان يعبّر عن حاجة إنسانية تقتضيها المتغيرات والتحوّلات المتسارعة التي يعرفها العالم في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ البشرية، وهو ما يجعل الحوار اختياراً استراتيجياً تفرضه التحدّيات الكبرى التي تواجه المجتمع الدولي، على وصف أن الحوار هو الوسيلة الفضلى للتعايش بين الأمم والشعوب، ولإزالة أسباب التوتر والصراع الذي يؤدي إلى نشوء الأزمات الدولية.

ومن هنا ندرك الأبعاد الإنسانية الحضارية لمبادرة خادم الحرمين الشريفين لإقامة جسور للحوار بين الحضارات والثقافات وأتباع الأديان من أجل إشاعة ثقافة التعايش والتعاون على جميع المستويات، وفي سبيل الوصول إلى إيجاد تَوَافُق دولي يُفضي إلى التغلب على المشكلات الناتجة عن سوء الفهم وعدم الثقة التي تسود بعض المجتمعات الإنسانية، والتي تؤدي إلى زعزعة استقرارها والإضرار بمصالحها والحيلولة دون قيام نظام إنساني عادل تسود فيه قيم الحق والعدل والمساواة والاحترام المتبادل؛ وتلك هي الرسالة الحضارية الكبرى التي تنهض بها المملكة العربية السعودية منذ نشأتها في عهد الملك الباني المؤسس عبدالعزيز، يرحمه الله.

يظل الحوار العالمي خياراً استراتيجياً تفرضه التحديات الكبرى التي تواجه المجتمع الدولي على مختلف الأصعدة.